

المحاضرة رقم 08: النموذج البيولوجي النفسي الاجتماعي في تفسير الاضطرابات النفسية و الصحة العقلية.

تمهيد:

يعتبر النموذج البيولوجي النفسي الاجتماعي (Biopsychosocial Model) أحد أكثر النماذج التكاملية تأثيراً في تفسير الاضطرابات النفسية. ارتبط ظهوره أساساً بأعمال الطبيب النفسي Engel. G سنة 1977، عندما انتقد هيمنة النموذج الطبي الحيوي الصرف الذي يحتزل المرض في خلل عضوي فقط و اقترح الـا يدمج بين العوامل البيولوجية و النفسية و الاجتماعية في فهم الاضطراب النفسي. أصبح هذا النموذج أساسياً في علم النفس المرضي من أجل فهم أن الأعراض النفسمرضية ليست نتاج عامل واحد، بل نتيجة تفاعل ديناميكي بين الاستعداد العصبي الوراثي و العمليات النفسية و السياق الاجتماعي الثقافي للمريض.

1- تعريف النموذج البيولوجي النفسي الاجتماعي:

هو نموذج سبي تكاملي يفترض أن الاضطراب النفسي ينتج عن تفاعل عوما لبيولوجية و عوامل نفسية و عوامل اجتماعية في ظهور المرض و الصحة. تؤثر هذه العوامل الثلاث في السلوك عبر أربعة طرق مختلفة، فقد تكون عبارة عن عوامل سببية (على شكل ظواهر تحدث قبل المشكل و تكون سببا مدعما في حدوثه)، قد تكون عوامل خطر (تجمع بين عدة عوامل مثل الضعف، المشاكل و التي يمكن أن تزيد من احتمالية الإصابة باضطراب نفسي)، عوامل حماية (تكون على شكل قوى تعمل على خفض احتمالية الإصابة بالاضطراب النفسي)، عوامل احتفاظ (تعمل على دوام الاضطراب النفسي و استمراريته).

2- طبيعة العوامل المتعددة في النموذج البيولوجي النفسي الاجتماعي:

1-1 العوامل البيولوجية: يقصد بها العوامل الوراثية الجينية و العوامل العصبية، بحيث أثبتت الدراسات أن الجينات الوراثية تؤثر في سلوك الانسان و كذلك ظهور الاضطرابات النفسية، لكن كعوامل خطر أو حماية و ليست عوامل مسببة، مثلا عندما يصاب أحد التوأمن بمرض الفصام، ان احتمالية اصابة الآخر تكون بنسبة 50 بالمئة. تلعب العوامل العصبية كذلك دورا في تحديد السلوك و اظهار الاضطراب النفسي عن طريق عمل الجهاز العصبي من دماغ، و حبل شوكي.

1-2 العوامل النفسية: تنقسم بدورها الى العواطف ، الأفكار و السلوكات. تعتبر العاطفة عبارة عن معلومة تسمح لنا بالتكيف بسعة مع الوضعيات المعاشة. تؤدي العاطفة الى ظهور الاضطراب النفسي كذلك، فالعواطف

السلبية تعتبر عوامل خطر للإصابة بالاضطراب، أما العواطف الإيجابية فهي عوامل حماية. تلعب كذلك الأفكار دورها في تحديد السلوك و الاضطراب النفسي، فمثلا الميل الى تبني أفكار متشائمة و غير واقعية عن الذات و عن العالم المحيط يشير الى وجود اكتئاب و عند اظهار تأويلات كارثية و ترتبطة بالخطر فهذا يشير الى الرهاب و الفزع. تعتبر السلوكيات عبارة عن استجابات متعلمة من المحيط و هي مرتبطة بالعواطف و الأفكار، كما أنها المؤشر الملاحظ الأول الدال على وجود الاضطراب كالانعزال، الغرابة في السلوك و غيرها.

1-3 العوامل الاجتماعية: تمثل في الخبرات الحياتية، العلاقات الاجتماعية، التفاعل مع الخصائص الثقافية و الخصائص الاجتماعية. تتمثل الخبرات الحياتية المؤدية الى الاضطراب النفسي في عوامل القلق و التوتر كالتعرض للسوء المعاملة في الطفولة، التعرض لحادث أو فقدان شخص عزيز. يمكن للخبرات الإيجابية أن تكون عامل قلق كالزواج و الحمل و تزيد من خطورة الإصابة بالاضطراب النفسي. تلعب العلاقات الاجتماعية دورا كذلك في تحديد السلوك فالشخص الذي يعيش علاقات حسنة مع والديه سيطور سلوك اجتماعي إيجابي عكس الذي يعيش سوء المعاملة و الإهمال و الحرمان مما يرفع احتمالية اصابته بالاضطراب النفسي، كما أثبتت الدراسات أن العلاقات الإيجابية تلعب دور الحماية ضد الكثير من الاضطرابات النفسية. تتمثل الخصائص الثقافية خاصة في العقائد، القيم و التقاليد و هي تؤثر في سلوك الأفراد الذين ينتمون اليها، كما تؤثر في الصحة النفسية و ظهور الاضطراب النفسي عبر وضع المعايير و المؤشرات المختلفة بين المجتمعات الدالة على الاضطرابات النفسية و الأعراض المعبرة عنها، اضافة الى طريقة التكفل و علاجها. تلعب الخصائص الاجتماعية دورا كذلك في تحديد السلوك سواء كان عادي أو مرضي و هي تتمثل في الجنس (ذكر/أنثى) و السن. يؤثر الجنس في السلوك عبر وجود توقعات اجتماعية مختلفة و خاصة بكل من سلوك الذكر (القوة و الاندفاع) و سلوك الأنثى (العاطفة و التواصل)، أما فيما يخص ظهور المرض فيوجد تفاوت في درجة الإصابة بالأمراض ما بين الذكر و الأنثى (الاكتئاب و قلق ما بعد الصدمة للأنثى و الاضطرابات السلوكية للذكور)، كما أن الجنس يؤثر في طريقة التعبير عن بعض الاضطرابات النفسية تبعا للخصائص الاجتماعية، فالقلق و الحزن من طرق التعبير الأنثوية و الغضب و العدوان من طرق التعبير الذكورية. يؤثر السن بدوره في ظهور الصحة العقلية و الاضطراب النفسي، فمثلا كثيرا ما تعتبر فئة المسنين أكثر عرضة للإصابة بالاضطراب النفسي، بحيث أثبتت دراسات حديثة أنهم أكثر عرضة للإصابة بالاكتئاب و عدم الرضى عن جودة حياتهم النفسية خاصة اذا لم يتلقوا الدعم و المساندة النفسية من أهاليهم.

1-4 عوامل نمائية: يوجد عامل مهم كذلك في تحديد السلوك البشري و هو عامل الوقت. يؤثر الوقت عبر احداث تغييرات و تطورات داخلية خارجية عند الانسان. يمر الانسان خلال حياته بمراحل عديدة تتميز كل

مرحلة بتغيرات و خبرات و تجارب معينة و قد تم وصف هذه التغيرات النمائية من طرف العديد من الباحثين كالنمو النفسي الاجتماعي لايريكسون و النمو المعرفي لبياجيه و غيرهم، فمثلا في نظرية "ايريكسون" يمر الفرد خلال حياته ب8 أزمات نمائية كبرى و هي عبارة عن فترات حرجة و محددة للسلوك الفردي. يؤثر الوقت كذلك في ظهور الاضطراب النفسي بالأخص من وجهة نظر إحصائية، بحيث أنه في كل مرحلة نمائية يوجد قابلية معينة للإصابة بالاضطراب على حسب تطور الفرد و خبراته الشخصية.

3- نموذج المسارات البيولوجية النفسية الاجتماعية:

على الرغم من أهمية نموذج "انجل" البيولوجي النفسي الاجتماعي الأصلي في التطرق الى دور و أهمية كل من العوامل البيولوجية و النفسية و الاجتماعية، إلا أنه لظالما تلقى الكثير من الانتقادات لكونه غامضا و اسعا جدا و غير قابل للاختبار و نتيجة لذلك ظهرت الحاجة الى الى تحديث هذا النموذج عبر تحديد مسارات محددة تربط بين العوامل البيولوجية و النفسية و الاجتماعية بطريقة دقيقة و قابلة للاختبار. جاء نموذج مسارات العوامل البيولوجية النفسية الاجتماعية ل karunamuni و آخرون 2020، ليحدد هذا الغموض و النقص في النموذج الأصلي ل"انجل" و يجيب على التساؤل المركزي: ما هي المسارات السببية الدقيقة التي تربط العوامل البيولوجية و النفسية و الاجتماعية؟. حدد هذا النموذج ستة مسارات سببية مباشرة بين الأنظمة الثلاثة: B : psychological، biological، P : social و S : ينتج عنها المسارات التالية:

- 1- من بيولوجي - نفسي: خل السيروتونين، فرط نشاط اللوزة الدماغية يؤدي الى أفكار عدوانية، حساسية مفرطة للضغط، و مزاج مكتئب. مثلا: في اضراب الملح يوجد فرط تنبيه عصبي يؤدي الى تفسير كارثي للأحاسيس الجسدية.
- 2- من بيولوجي - اجتماعي: خل السيروتونين، فرط نشاط اللوزة الدماغية تؤدي الى العزلة، ضعف العلاقات الاجتماعية و الوصمة، هذا المسار مهم جدا في تفسير الاضطرابات المزمنة و الذهانات.
- 3- نفسي - بيولوجي: الأفكار السلبية في الاكتئاب تؤدي الى ارتفاع الكورتيزول و تغيير نشاط الجهاز اللمفاوي.
- 4- نفسي - اجتماعي: سوء تقدير الذات و المشاعر السلبية تؤدي الى الانسحاب الاجتماعي و ضعة الكفاءة الاجتماعية و تجنب العلاقات.
- 5- اجتماعي - نفسي: الفقر، التنمر، العنف الاسري يؤدي الى أفكار سلبية، مشاعر النقص و ضعف الشخصية.

6- اجتماعي - بيولوجي: الفقر، الحروب، التمييز العنصري تؤدي الى ارتفاع الكورتيزول، التهابات عصبية و حتى الى تغيرات جينية (Epigenetic changes)، أي تغيرات في طريقة عمل و وظيفة الجينات العصبية، مثلا جين NR3C1 هذا الجين دوره تنظيم الكورتيزول في الدم و عند التعرض للاساءة و العنف و الفقر يحدث ارتفاع في مثيلة هذا الجين و منه فرط يقظة، قلق مزمن و قابلية الاكتئاب. يعتبر هذا المسار أهم مساهمات كاروناموني و أهم ميدان في علم النفس العصبي الحديث.

من المهم الإشارة الى أن لا توجد عوامل ذات أهمية أكبر من العوامل الأخرى، وأما الأهم هو دراسة قوة الارتباطات بين هذه العوامل على أساس الفروق الفردية و بناء على الظروف الخاصة بالمريض قد توجد عوامل ذات تأثيرات قوية على الصحة. يولي نموذج المسارات أهمية خاصة للتجارب الشخصية و العوامل النفسية و هو أمر مهم لفهم الاختلافات الفردية في الاستجابة للعوامل، على سبيل المثال قد يفسر البعض عاملا اجتماعيا كحدث مفاجئ على أنه شيء إيجابي فيتحمسون و يفرجون، و قد يفسره آخرون أنه سلبى فيقلقون و يهلعون مما يؤدي الى استجابات سلوكية مختلف، مسار اجتماعي -نفسى و مسار اجتماعي - بيولوجي.